8 إميلي برونتي

«الثروة مزدراة بعينى
والحبُ أراه بعين الاستخفاف
وما شهوة المجد غير أضغاث أحلام
زالت مع الصباح
وإذا صليت فما من دعاء على شفاهى إلاَّ :
«ذر القلب الذى أحمل بين الضلوع
وامنحنى الحرية» .
نعم، وإذ تدنو أيامى المسرعات لغايتها
فهذا كل ما أرجو
روحاً طليقاً فى الموت والحياة
وشجاعة على الاحتمال» .

الأديبة الإنجليزية، صاحبة الرواية الخالدة التى ما زالت تُقرأ إلى الآن، وتحتل مكان الصدارة بين كل الروايات العالمية «مرتفعات وذرينج». تركت أكثر من 200 قصيدة شعرية تميل فى معظمها إلى الصوفية والتساؤلات العميقة عن طبيعة الحياة ومغزاها .

تقول عنها أختها «شارلوت» : «إنَّها أقوى من رجل، وأكثر بساطة من طفل .. روحها كانت قاسية على جسدها» .

قاومت مرض السل بكل ما أوتيت من قوة حتى رحلت وعُمرها 31 عاماً .

الميلاد .. وذكريات الطفولة :

ولدت «إميلى برونتى» Emily Bronte فى 30 من شهر يوليو عام 1818م فى قرية «هاورث» لأب كان قسيساً. توفيت أمها وعُمرها ثلاث سنوات فقط. وشهدت موت شقيقتها الكبرى «ماريا» ثم «إليزابيث» فى عام واحد تقريباً، كماشهدت موت شقيقها الوحيد «باتريك» بداء السل عام 1848م . وهكذا ظلّ على قيد الحياة «شارلوت»، و«إميلى، و«آن» .

رحلة تعليم محفوفة بالفشل !!

غادرت «إميلى» بيت الأسرة للمرَّة الأولى وهى طفلة فى السادسة من عُمْرها، إذ أرسلها والدها إلى مدرسة داخلية خاصة، ولكن الأب سرعان ما استدعاها كى تعود إلى البيت، وذلك لأنَّها لم تحتمل نظام المدرسة الصارم والغربة عن البيت، وقرَّر أن يقوم هو بتعليم أولاده ؛ فأشرف على مطالعتهم.

ثم غادرت «إميلى» البيت للمرَّة الثانية بعد مرور عشرة أعوام فى محاولة جديدة للحصول على تعليم منهجى فسافرت إلى بروكسل العاصمة البلجيكية استعداداً لتجربة حظها فى ممارسة التعليم، ولكنها فشلت من جديد فى الحصول على التعليم؛ لأنَّ شوقها إلى بيتها كان يتحوَّل إلى ألم حقيقى، كما أن أختها «شارلوت»، والتى كانت مُعلِّمة فى نفس المدرسة خافت من عواقب مرضها الذى كان يعاودها بين الحين والآخر، فأعادتها إلى البيت من جديد .

الحنين للمكان .. حد المرض!!

كانت المرتفعات، وخصوصاً فى فصل الصيف عندما يزهر نبات «الخلنج» بساطاً واسعاً بألوانه الزهرية، والأحمر الشاحب، والأرجوانى الفاقع المكان المُحبب لقلب «إميلى»، تمضى عليها الساعات الطوال للتنزه، كما كانت «إميلى» تعشق بيتها الذى تعبث فيه الريح من كل الاتجاهات، وكانت تشعر بالألم إذا ابتعدت عنه، وهى فى الواقع لم تفارقه كثيرًا، لدرجة أن بعض النُقَّاد يرون أن حنينها إلى بيتها كان حنيناً مَرَضياً !

إميلى برونتى.. تقاوم المرض بنشاط لا ينقطع!!

كانت «إميلى» مصابة بداء السل، ولكن هذا لم يمنعها يوماً من أن تنهض كل صباح قبل الجميع، تُشعل النار فى الموقد، تعجن العجين وتخبزه وتُهيئ طعام الفطور قبل أن تستيقظ الخادمة العجوز «توبى» وتدخل إلى المطبخ. كانت تُصيبها الحمَّى بشكل مستمر، وسعالها لم يعد ينقطع إلاَّ نادراً، ولكنها لم تكن تسمح لأحد بأن يشفق عليها . وها هى «شارلوت» تكتب عن قلقها الشديد لإحدى صديقاتها حيث تقول : «إن إميل

تبدو شديدة الشحوب، وقد نحلت كثيراً، ولكن من العبث سؤالها عن صحتها، فهى لن تُجيب بشيء، ومن العبث أكثر نصحها بتعاطى الأدوية فهي ترفض ذلك بشكل قاطع».

الحنين إلى العزلة .. وتراجيديا الموهبة الفذة !!

«إميلى» تعرف جيداً أنّها تعود إلى البيت لا لكى تعيش في سجن منعزل عن العالم بل على العكس . فهى فى بيتها كانت تشعر بحريتها المطلقة، وهذا ما كانت تفتقده بعيداً عن البيت . وهى إن حكمت على نفسها بالعزلة فإنّ ذلك بسبب تراجيديتها الداخلية، تراجيديا الموهبة الفذة فى «أكثر العصور مللاً وضجراً» كما أطلق على ذلك العصر الكاتب الساخر «أوسكار والد» ودراما«إميلى» ليست نادرة فى عصر الرومانتيكية ذاك، وسبب تراجيدياً روحها هى فى ذلك الصِّراع الدائم مع النفس والشعور المطلق بعدم الرضا، الذى كان دائماً مصدر ألم لا ينتهى للنفوس المتميزة العميقة .

صفات «إميلى برونتى» وسماتها :

لم نعرف الكثير عن حياتها إلاّ النذر اليسير، إذ كانت فى الغالب متحفظة كتوم، لم تترك مراسلات ذات أهمية، كما لم تتميَّز بطابع اجتماعى، ولم تكن سهلة المعشر، وربما لهذا لم يكن لديها صديقات أبداً على عكس أختيها «شارلوت» و «آن» وقد عُرفت بعض صفاتها عن طريق «شارلوت» فى رواية «شيرلى» والتى اعتمدت فيها على وصف شخصية «إميلى» .

و «إميلى» فتاة ناحلة الجسم، لها عينان يشبهان عينى المها، شعرها أسود فاحم طويل معقود على هيئة ضفيرة كبيرة خلف ظهرها.

كانت أكثر أخواتها موهبة، وشخصيتها أقوى، وهى أكثرهن جمالاً، وكانت أحب أخواتها إلى أبيها فى حدود ما كان يُظهره ذلك الأبّ من حبٍّ وحنان .

وهى فتاة خجولة، رقيقة، وهادئة، لها روح شاعرية، وخيال روائى رائع، وصاحبة قلم جميل يُبدع فى عالم يغلفه سكون الوحدة والعزلة، والحزن أيضاً :

أيتها النجوم والأحلام والليل الرقيق

أيها الليل والنجوم عودوا

وخبئونى من الضوء القاسى

الذى يُحرق ولا يدفئ.

و «إميلى» على الرغم من صحتها المتدهورة دائماً إلاَّ أن لها صلابة أخلاقية وجسدية ممكن أن يمتلكها عامل فى مصنع لا ابنة قسيس رقيقة، فكما تقول «شارلوت» : «لم أكن أبدًا ندًّا لها فى شىء، إنَّها أقوى من رجل، وأكثر بساطة من طفل».

أمَّا عن الحبّ والرجال فهذا عالم لا تعرفه، أو هو ينتمى إلى ألم الحرمان الداخى، تقول «إميلى» فى قصيدة «الرواقى القديم» : الحبُّ أراه بعين الاستخفاف.

كان طبعها شديد التناقض، فهى أحياناً حادة عنيدة، متشبِّثة ومتعصِّبة لآرائها، وفى الوقت نفسه كانت شديدة التحمُّل مع أولئك الذين تُحبّهم، ومتفانية فى العطاء والإثرة.

وقد بدأت «إميلى» تدوين إبداعاتها الفعلية عام 1843م وعُمْرها 25 عاماً، بعد أن فقدت الأمل فى نجاح مشروع المدرسة، فقد فشلت فى جذب الأهالى الذين كانوا يتحاشون بيت السيد «برونتى» بسبب انـزواء أهله، وانطوائهم وحياتهم التعسة وحزنهم الدائم.

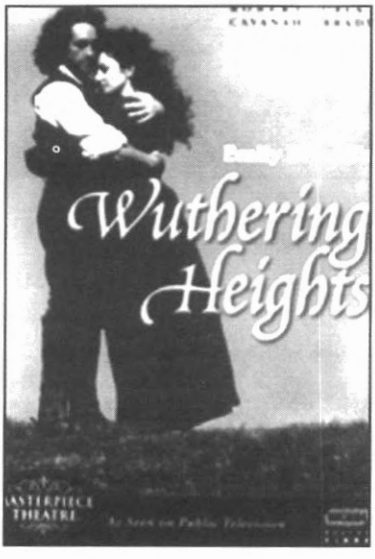

إبداع «إميلى برونتى» الروائى والشعرى :

رواية : مرتفعات وذرينج :

قصة مأساوية، تحمل رؤية تراجيدية تشبه المآسى الإغريقية، تمثل صورة من صور الحُبّ الـذى يمتزج فيه المـوت والكُره والانتقام والعنف. أروع رواية بالإنجليزية، ترجمت لكل

لغات العالم، وأوحت بكثير من الأعمال الدرامية فى المسرح والسينما والتلفزيون .

كتبت «إميلي برونتى» روايتها الخالدة «مرتفعات وذرينج» Wuthering Heights عام 1847م . ثم صدرت طبعة ثانية من هذه الرواية عام 1850م، بعد وفاة «إميلى» مباشرة، مع مختارات من أشعارها .

مازالت فى الطليعة :

فى استفتاء أجرته قناة تلفزيونية إنجليزية مع مجموعة كبيرة من الأشخاص لاختيار أفضل الروايات التى كتبت فى تاريخ الأدب الإنجليزى وقع الاختيار على رواية «مرتفعات وذرينج» لتحتل قمة القائمة المكونة من عشرين رواية . وعلى الرغم من مرور أكثر من 162 عام على صدور الرواية فما زالت تأسر قلوب القُرَّاء الإنجليز .

حبٌ يمتزج بالكره ورغبة الانتقام !!

«مرتفعات وذرينج» رواية مأساوية تحمل رؤية تراجيدية تشبه المآسى الإغريقية حول القدر ومصائر البشر، إنَّها تمثل صورة من صور الحبّ الذى يمتزج فيه الكره والموت والعنف ورغبة الانتقام . رواية تحمل تفاصيل حياة شخصية معذبة، يُعاندها القدر، يحطم أحلامها ، ولكنها لا تفقد روح العطف الإنسانى، ولا روعة الحبِّ الذى يصبح الأمر الوحيد الذى يبرر معنى وجودها، وليس القدر وحده هو الذى يثير الحزن فى نفوس أبطالها ولكنها القيم الاجتماعية والممارسات الطبقية التى تجعل الإنسان أسيراً لها وتسلبه أحلامه .

لماذا هى رواية مُتفردّة ؟

ما يميز هذه الرواية ويُسبِّب تفردُها هو الفكرة الواقعية المحضة التى عبَّرت عنها «إميلى برونتى» عَبْر الرَّمزية الرومانتيكية، حتى اسم البطل الرئيس «هيثكليف» يعنى: القمة التى ينمو عليها نبات الخلنج . وجعلت الكاتبة من الصراعات الواقعية الحياتية ميثيولوجيا، ممَّا جعلها تتضاعف فى حجومها ، وترتفع بالخاص إلى شمولية فضائية، وتحول الزمن فى سيره السريع إلى مقياس أبدى .

كما تتميَّز هذه الرواية ببنائها غير العادى، وأسلوبها الرومانسى والدرامى، وغياب أية تعليقات من المؤلِّفة . وتختلف «إميلى» عن «شارلوت» و «آن» بعدم توظيف تفاصيل حياتها الخاصة أو المصادفات المُبالغ فيها . كما أن مشاهد الأحداث محدودة مع قلة عدد الشخصيات التى تتحرَّك بدوافع بدائية وعميقة من الحبِّ والكراهية حتى تصل إلى نهايتها المنطقية .

شخصيات الرواية، وأحداثها :

* هيثكليف : لقيط تبناه إيرنشو الكبير .
* هندلى : ابن إيرنشوا الكبير .
* كاترين : ابنة إيرنشو الكبير ،، وشقيقة هندلى، وتدعى «كاتى» أيضاً .
* إدجارلينتون : وريث ضيعة الجرانج، وتزوج من كاترين .
* إيزابيلا : شقيقة إدجارلينتون، تزوجها هيثكليف .
* هيرتون : ابن هندلى .
* مسز نيللى دين : مدبرة المنزل .
* لوكوود : راوى القصة، ومستأجر الدار فى ضيعة الجرانج .
* كاترين الصغرى : أرملة ابن هيثكليف وابنة كاترين إيرنشو .
* زيلا : الطاهية .

مرتفعات وذرينج فى نطاق إيجازنا هى قصة على لسان رجل يُدعى «لوكوود» استأجر بيتاً فى الأحراش يتوسط ضيعة «جرانج» التى يملكها هى وضيعة مرتفعات وذرينج القريبة منها شخص يُسمى «هيثكليف» ووجد «لوكوود» أن من واجبه زيارة صاحب الدار فى مسكنه بمرتفعات وذرينج، فاستقبله «هيثكليف» بفظاظة وترك كلابه الشرسة تنال منه وتمزق ثيابه غير مبال بصراخه . والله وحده يعلم ما كان سيحدث له لولا أن الطاهية «زيلا» تدخلت فضربت الكلاب .

أحس «لوكوود» أن وراء خشونة «هيثكليف» سرًّا، عهد على نفسه أن يكتشفه . ثم كرر الزيارة فى اليوم التالى، فوجد جو البيت هذه المرَّة أدعى للغرابة، فهناك شابة حسناء، اكتشف أنها أرملة ابن «هيثكليف»، وهناك شاب يعمل فى الفلاحة اسمه «إيرنشو»، كان «هيثكليف» يعامله بخشونة، فزاد السر فى نظر «لوكوود» غموضاً وتعقيداً .

وبلغ من سوء الطقس أن الشاب «إيرنشو» اصطحب «لوكوود» فى عودته إلى داره لشدة الظلام، ووعورة الطريق، ولكن ذلك لم يعصمه من الانزلاق، فنزف الدم من أنفه، ولكن الطاهية «زيلا» أدركته، فصبت على رأسه الماء البارد، ثم وجد نفسه مضطراً لقبول ضيافة «هيثكليف». وإلى غرفة غير مستعملة صعدت به «زيلا» وهى تحثه على إخفاء ضوء الشمعة، لأنَّ سيدها لا يسمح لأحد بدخول هذه الغرفة منذ سنين ،ولمَّا أغلقت عليه الباب شرع يتفقد المكان، فإذا مقعد، وخزانة ملابس وخزانة أخرى كبيرة من خشب البلوط بداخلها فراش، فآوى إلى الفراش بعد أن أغلق باب الخزانة، وما أن دب النعاس إلى أجفانه حتى رأى أشباحاً تهز نافذة الخزانة وتطرق زجاجها وتطلب منه وهى تئن أن يفتح لها كى تدخل، وهب «لوكوود» مذعوراً، فإذا بصف الكتب الذى يحتل حافة النافذة يتحرَّك، فأطلق صرخة سمع على إثرها صوت خطوات تقترب، وانفتح الباب بعنف ودخل «هيثكليف» وفى يده شمعة، وقد حاكى بيض وجهه وجوه الموتى، وجعل يستفسر «لوكوود» «لوكوود» . ثم أخذ «لوكوود» يجمع ثيابه المبعثرة وهو يلعن كى يُغادر تلك الحجرة المسكونة بالعفاريت . ثم توجه «هيثكليف» إلى الفراش داخل الخزانة وهو يبكى مردداً بين شهقاته : ادخلى .. ادخلى يا حبيبتى كاتى .

وفى الدار التى استأجرها «لوكوود» لزم الفراش محموماً بضعة أيام على إثر تلك الرؤيا الفظيعة، سهرت على راحته وعلاجه مسز «نيللى دين» مدبرة الدار. وفى تلك الساعات الطوال راح يلاحقها بالأسئلة عمَّا تخفيه مرتفعات وذرينج من أسرار وأسعده أن يعلم منها أنَّها عاشت فى جو المرتفعات ما يزيد على ثمانية عشر

عاماً . وبدأت «دين» تقص عليه تاريخ «هيثكليف» الحافل بالأسرار، فهو ليس الوريث لتلك الثروة التى تضم ضيعتى «الجرانج» والمرتفعات، وإنما هو طفل لقيط أحضره ذات ليلة ربّ ضيعة المرتفعات مستر «إيرنشو» الكبير وكان للسيد ابن يضارعه فى العُمْر، نشأ سكيراً عربيداً. وكانت له أيضاً ابنة وحيدة أصغر من «هيثكليف» بثلاث سنوات اسمها «كاترين»، يدللونها باسم «كاتى» جميلة وجذابة وجياشة العواطف، وقد نشأ الأطفال الثلاثة معاً.

وكان الابن المدلل «هندلى» يبغض «هيثكليف» فى حين كانت «كاترين» تحب الفتى اليتيم ولا تفارقه . وكان السيد يعطف عليه، ولا يترد فى إنزال العقاب الصارم بابنه «هندلى» كلّما شعر أنّه يؤذى الطفل المسكين .

أرسل السيد ابنه «هندلى» إلى لندن ليتم تعليمه ويبعده عن الدار فقضى فى تلك الغيبة أربع سنوات، ولم يعد إلى المرتفعات إلا حينما توفى والده. عاد ومعه سيدة جميلة شقراء تزوجها فى غربته خلسة ووجد «هندلى» أخته «كاترين» و «هيثكليف» على أتم مودة ووفاق. فصب جام غضبه عليهما معاً، وأنزل «هيثكليف» منزلة الخدم وحرم عليه ملازمة أخته .

فى تلك الفترة ظهر فى الأفق «إدجار لينتون» الشاب وريث ضيعة «الجرانج» وهو فتى وسيم ورقيق سليل العز، ذو ثقافة متعددة الجوانب، فهو نقيض «هيثكليف» شكلاً وموضوعاً، ولم يكن «هيثكليف» فى تلك الأيام يُفارق الأحراش حتى اكتسب سحنة المتوحشين، فوق الذى يجرى فى ملامحه من شبه بالغجر من الرحل.

وجعل «إدجار» وأخته الجميلة «إيزابيلا» يُحيطان «كاترين» بالرعاية، الأمر الذى جعل «هيثكليف» يشعر بالسخط وأثار لواعج طبيعته المتوحشة.

وتستطرد مسز «دين» فى رواية تلك الأحداث . وفى ذات يوم باحت لها «كاترين»- وهى لا تشعر بوجود «هيثكليف» - فى مكان مظلم من الحجرة بأنها تعتزم الزواج من «إدجار» : «إننى لم أُخلق للزواج من «إدجار»، فلست ممَّن يليقون لدخول جنات الفردوس، ولو لم يكن «هيثكليف» قد أنزل هذه المنزلة المتواضعة، لما فكرت فى الزواج

من «إدجار»، ولكن ما حيلتي وزواجي بـ «هيثكليف» يحط من شأني ويقضي على سمعتي، ولذا ينبغي ألاَّ يعرف «هيثكليف» مبلغ حبي له . إنني أُحبّه حُبًّا غير حبي الجمال والوسامة، بل أُحبّه حبي لذات نفسي».

وما أن سمع «هيثكليف» في مكمنه المظلم تلك الكلمات حتى انفلت هارباً إلى العراء فذعرت «كاترين» وجرت خلفه في الأحراش، وظلت تهيم على وجهها طوال الليل بحثاً عنه تحت وابل المطر، فلم تقع له على أثر .

ولزمت «كاترين» الفراش شهرين، تهذي تحت وطأة الحُمى باسم «هيثكليف» . ولمَّا استردت عافيتها حتى عُقد زواجها من «إدجار» وانصرف أخوها «هندلي» إلى الإفراط في الخمر بعد أن ماتت زوجته بداء السل، بعد أن وضعت وليدهما «هيرتون إيرنشو» الذي يُقيم اليوم في المرتفعات عاملاً من عمال الزراعة .

عاشت «كاترين» في سعادة غامرة مع زوجها الذي يحبها، ولم تذكر اسم «هيثكليف» على لسانها . إلى أن كانت مسز «دين» في الحديقة ذات مساء وإذا بصوت من خلفها يناديها، فلما التفتت وجدت أمامها «هيثكليف» وقد غدا رجلاً أجش الصوت، طويل القامة، أسمر الوجه، أسود اللحية، يرتدي ثياباً فاخرة، وقد غارت وجنتاه، لم يُبدِّد الوقت بل قال باقتضاب : يجب أن أراها .

لا أحد يعلم كيف استطاع «هيثكليف» أن يجمع تلك الأموال الطائلة التي عاد بها، وقد أغرق ضيعة المرتفعات في الديون التي تورط فيها «هندلي» لينفقها على الخمر، وأصبح «هيثكليف» هو السيد وهو الذي فارق الدار خادماً منبوذاً منذ سنوات، وجعل يعقد أواصر الصلة بينه وبين الصغير «هيرتون إيرنشو» ليكون وسيلته فيما بعد للانتقام من أبيه . وما لبث أن مات «هندلي» إثر مبارزة، فآلت مرتفعات وذرينج وأحراشها إلى «هيثكليف» ملكاً خالصاً بكل ما فيها ومَنْ فيها وفي المقدمة «هيرتون إيرنشو» الصغير.

وذات يوم وصلت مسز «دين» رسالة من «إيزابيلا» شقيقة «إدجار» تخبرها أنها عادت مع زوجها «هيثكليف» إلى المرتفعات وأنَّها كانت تتمنى أن تزور «كاترين» وقد سمعت بمرضها لولا خوفها من أخيها . وفي هذه الرسالة أظهرت بوضوح ما

تتلقاه على يد زوجها من فظاظة فى المعاملة لم تكن تخطر لها ببال، ورجت مسز «دين» أن تزورها فى المرتفعات .

وذهبت مسز «دين» إلى المرتفعات لتجد «هيثكليف» يُعامل «إيزابيلا» معاملة الخدم، وقد تبدلت حالها أسوأ حال . لم يهتم «هيثكليف» حين رأى مسز «دين» إلاَّ بالسؤال المتلهف عن «كاترين» وحالتها الصحية . وصرخ أمام زوجته مقسماً أن يراها وتوعد مَنْ يقف فى طريقه بالويل . فقالت له مسز «دين» إن حالتها الصحية لا تحتمل الهزات العصبية العنيفة، فربما قضت زيارته عليها . ثم أجبرها على حمل رسالة منه إلى «كاترين» وما إن وقعت عيناها على التوقيع وهى مضطجعة على فراش المرض حتى ضمت الخطاب إلى صدرها بلهفة . ثم سمعت هى ومسز «دين» وقع خطوات تقترب من الحجرة ثم فتح الباب ودخل «هيثكليف» فقطع المسافة إلى الفراش فى خطوتين، وكان أول ما نطق به فى صوت يرتجف بالأسى واليأس :

– آه ياكاتى يا حياتى ! كيف أستطيع أن أحتمل هذا ؟

ثم راح يُحدق فيها بقوةٍ والجزع يتقد فى نظراته اتقاداً حال بين الدموع المتجمعة وبين الذوبان والمسيل، وتراجعت «كاترين» إلى الخلف ونظرت إليه مقطبة الجبين وقالت :

– أنت و «إدجار» حطمتما قلبى يا «هيثكليف» والآن تأتى باكياً ؟ لن تأخذنى بك شفقة ! لقد قتلتنى ! ما أقواك ! وكم سنة تنوى أن تعيشها من بعدى ؟

فركع «هيثكليف» على إحدى ركبتيه وحاول أن ينهض فتشبثت بشعره وأبقته راكعاً وقالت بمرارةٍ :

– تمنيت لو كان فى استطاعتى أن أمسكك هكذا إلى أن نموت معاً، وما كنت لأكترث لما عسى أن تعانى، فعذابك لا يعنينى، ولماذا لا تعانى وتتعذب ؟ فأنا أُعانى وأتعذب، هل ستنسانى ؟ هل ستكون سعيداً عندما يوارينى الثرى ؟ هل ستقول بعد عشرين عاماً : هذا ضريح «كاترين إيرنشو»، وقديماً كنت أُحبها، وآلمنى أن أفقدها، ولكن هذا كلَّه انتهى الآن .. ولكم أحببت من بعدها الكثيرين، فأولادى أحب إلىَّ ممَّا

كانت «كاترين»، ولكم يحزننى أن أفارقهم عندما أموت، ولن يسعدنى أبداً أننى أترك جوارهم إلى جوارها أليس هذا سيكون حديثك لنفسك يا «هيثكليف» !؟

فصرخ وخلَّص رأسه من قبضتها بعنفٍ وقال :

- لا تُعذبينى كى أُجن كما جننتِ .. هل بكِ مس من الشيطان حتى تكلمينى بهذا الأسلوب وأنتِ على شفا الموت ! ألاَّ تدركين أن كل كلمة تتفوهين بها ستُحفر فى ذاكرتى، وتظل تأكل من عقلى إلى الأبد، بعد أن تفارقينى ؟ وإنكِ لتعلمين أنكِ تكذبين حين تقولين إنني قتلتكِ، وإنكِ لتعلمين أيضاً يا «كاترين» أنَّه لا سبيل لى إلى نسيانكِ إلاَّ أن أنسى وجودى ! أليس حسب أنانيتكِ الشيطانية أننى سأتلظى فى عذاب جهنم، هنا حينما تكونين أنتِ قد نعمت بالراحة الأبدية.

وقبيل منتصف تلك الليلة ولدت «كاترين» الصغيرة التى تعيش الآن فى المرتفعات، ولدت فى الشهر السابع من الحمل بها، وبعد ساعتين من مولدها ماتت «كاترين» الكبرى، الأم، من غير أن تفيق من إغمائها، أو تشعر بأنَّها غدت أمّاً، وكان مُصاب «إدجار» فى موتها فادحاً لا سبيل إلى وصفه.

وذات يوم هربت «إيزابيلا» أخت «إدجار» من قسوة زوجها «هيثكليف» الذى أسرف فى اضطهادها لها بعد موت « كاترين»، وظلت عشر سنوات متوارية عن الأنظار، ثم بعثت إلى أخيها تطلب منه الحضور لأنَّها على فراش الموت . وذهب «إدجار» إليها وقضى معها أياماً ثم عاد بابنها «لينتون» وهو ضعيف هش . وكانت «كاترن» الصغيرة تكبره بستة أشهر ولكنها كانت فى أوج صحتها، وكانت فرحتها به لا توصف، لأنَّه آنس وحدتها .

ونما إلى علم «هيثكليف» أمر وجود ابنه عند خاله، فأرسل مَنْ يُحضره إلى المرتفعات وإلاَّ جاء بنفسه ليأخذه، ولم يكن أمام «إدجار» إلاَّ أن يسلمه لرسل أبيه، مع أن «إيزابيلا» أوصته وهى على فراش الموت ألاَّ يدع الفتى لأبيه مهما حدث. وما كان حبه لابنه هو الدافع لـ «هيثكليف» على ذلك الإصرار بل رغبته فى مواصلة

الانتقام من «إدجار»، فقد طفق يعامله بمنتهى الشراسة، وفى الوقت نفسه هيأ الجو كى يتعلَّق «بكاترين» الصغيرة ليجعل من ذلك سبيلاً إلى إزعاج «إدجار»، وقد تم له ما أراد حين التقت بابن عمتها «لينتون» وراحت تتودد له . ومرض «إدجار» فلزم الفراش وحذر ابنته من الذهاب فى نزهاتها إلى مرتفعات وذرينج فرضخت الفتاة لأمر أبيها، ولكن حبها لابن عمتها غلبها على أمرها فكانت تراسله خلسة عن طريق أحد الأتباع . وفي بعض رسائل «لينتون» إليها أخبرها أنَّه طريح الفراش، فجعلت الفتاة تتوسل إلى مسز «دين» كى تصحبها إلى هناك فى غفلة من أبيها . وكان هذا هو الكمين الذى أعده «هيثكليف» بعناية. فما أن وصلتا إلى المرتفعات حتى حبس مسز «دين» فى حجرة قضت فيها أربعة أيام لا تعرف عن أمر «كاترين» الصغيرة شيئاً، حتى إذا أفرج عنها وجدت سيدتها الشابة وقدعُقد زواجها على «لينتون»، وأرسل «هيثكليف إلى «إدجار» أبيها ينذره أنَّه احتجز الفتاة لأنَّها صارت زوجة شرعية لابنه، ولا سبيل لأبيها عليها بعد اليوم.

وكانت هذه الطعنة هى القاضية على «إدجار» فساءت صحته . وبعد أيام استطاعت «كاترين» أن تتسلل فى الفجر وتحضر إلى «الجرانج» لترى والدها قبل أن يموت . ولم تمنع رهبة الموت «هيثكليف» أن يأتى بنفسه ويأمر «كاترين» بالعودة إلى المرتفعات . وخفف من وقع الحياة على «كاترين» أنَّها لم تزل تحب «لينتون» ولكن صحته تدهورت إلى أن مات فنجا من عذاب الحياة مع أبيه . ولبثت كاترين «حزينة على «لينتون» منطوية على نفسها تجتر آلامها، وهذه هى الحالة التى وجدها عليها «لو كوود» حين زار المرتفعات.

تحسنت صحة «لوكوود» فرحل عن المنطقة، وبعد فترة طويلة عاد ليسوى حساباته وينهى عقده مع «هيثكليف»، فما أن وصل إلى مرتفعات وذرينج حتى رأى باب الحديقة مفتوحاً على خلاف العادة، ولمح فى الشرفة شاباً وشابة يتناجيان فى حنان وحب، وبعد لـحظة رأى مسز «دين» أمامه فرحبت به كثيراً، وعرف منها تتمة القصة . لقد تغيَّر

حال «هيثكليف» بعد وفاة أعدائه وابنه، وصار يقضى وقته متجولاً بين الأحراش يُناجى روح «كاترين» التى يؤمن أنَّها هائمة هناك لا يقر لها قرار إلى أن تجتمع به . وذات يوم وجدوه ميتاً هناك، فخلا الجو لـ «لكاترين» الصغيرة و «هندلى إيرنشو» الذى كان يحبها فاستطاع أن يخرجها من أحزانها، ثم تزوج منها، ودعيت مسز «دين» للإشراف على «مرتفعات وذرينج» فطردت كل من كان يستخدمهم «هيثكليف»، وعاد الهدوء والحب يرفرفان على البيت السعيد .

آراء النُقَّاد :

لَمَّا نشرت «إميلى برونتى» روايتها ارتكب النُقَّاد خطأً جسيماً فى تقديرهم لتلك الرواية إذ اعتبروها عملاً متدنياً، كما أن الرواية وضعت النُقَّاد فى موقف صعب للغاية وذلك فى محاولاتهم تحديد هوية الاتجاه الفنى : هل تنتمى رواية «مرتفعات وذرينج» إلى الاتجاه الرومانتيكى أم الواقعى ؟ وواقع الأمر فإن هذه الرواية لا تنسجم مع أى منهما، وقد يكون الأقرب للواقع أن نسميها توليفة للاتجاهين .

بعد موت «إميلى» تغيَّر الوضع تماماً، فلقد أحدثت الرواية تأثيراً لا يوصف .

فيقول الناقد الإنجليزى «والتر آلن»: «مرتفعات وذرينج هى أروع رواية بالإنجليزية فهى تجسيد كامل للفهم بالغ الفردية لطبيعة الإنسان والحياة، ومعنى هذا أن المضمون غريب بما فيه الكفاية، بل فى الواقع مُحير، بينما لا يشوب التعبير الفنى أى شائبة، ومن الناحية الفنية لم تكتب «جين أوستن» أو «هنرى جيمس» أو «جوزيف كونراد» كبار أساتذة الشكل الفنى فى الرواية الإنجليزية شيئاً يفوقها».

وفى كتاب «التقليد العظيم» The Great Tradition وصفها «ف. ر . ليفز» بأن: «الرواية عمل غير قياسى، وفى هذا تكمن الصعوبة فى مناقشتها ؛ فهى تختلف تماماً عن أية رواية أخرى، فليس هناك شىء يمكن مقارنتها به، مرتفعات وذرينج تقف فى فئة من الخلق والإبداع مقصورة عليها وحدها» .

أشعار «إميلى برونتى» :

تركت «إميلى برونتى» ما يقرب من مئتى قصيدة شعرية، وهى تميل فى شعرها إلى الصوفية والغموض والتساؤلات العميقة عن طبيعة الحياة ومغزاها . وقد اخترنا بعض هذه الأبيات للأديبة التى تقول فيها :

سأمشى إلى حيث تقودنى طبيعتى أنا

وإنَّها لتدفعنى لاختيار دليل آخر

إلى حيث ترتع القطعان الرمادية

فى الوديان الصغيرة التى يغمرها السرخس

إلى حيث تنفخ الريح الجموح بوجه الجبل .

***

هذه الجبال الوحيدة

ماذا بوسعها أنْ تكشف ؟

مجداً أعظم وحزناً أشد ممَّا فى وسعى إحصاؤه

والأرض التى توقظ الإحساس بقلب إنسان واحد

قادرة أن تكون مرتكزاً

بين عالمين من جنة ونار

الرحيل :

فى صباح يوم 19 ديسمبر عام 1848م استيقظت «إميلى» صباحاً، دخلت المطبخ كعادتها وقامت بإعداد الفطور، وبعد تناول الطعام جلست تحيك شيئاً ما، تماماً مثلما كانت تفعل كل يوم، ولكن ربما كانت أنفاسها أكثر تسارُّعاً هذا الصباح، وشحوبها أكثر وضوحاً للعيان، وذلك البريق الغريب فى عينيها أشدُّ لمعاناً . هذا يعنى فقط أنَّها اليوم تبذل جهداً أكبر فى مقاومة المرض، وعند الظهر، وللمرَّة الأولى فى حياتها طلبت

obeikandl.com

أن يرسلوا لإحضار الطبيب، وصعدت إلى فراشها لتفارق الحياة بعد ساعتين فقط عن عُمْر 31 عاماً، دون أن تتزوج .

آن برونتى .. مقتطفات من حياتها وإبداعها :

آن برونتي

«آن برونتى» Anne Bronte هى أصغر أخوات عائلة «برونتى» الشهيرة، التى قوامها ثلاث شقيقات هى : «شارلوت» و «إميلى» و«آن» إضافة لشقيقهن «باتريك» .

ولدت فى عام 1820 م . وجهت «شارلوت» كل حرصها بعد وفاة «إميلى» لأختها الوحيدة الباقية «آن» التى لم تستطع التخلُّص من نوبة البرد غير العادية، فدعت «شارلوت» طبيباً اختصاصياً بأمراض الرئة، الذى أكد احتمالية حدوث ما كانت تخشاه «شارلوت»، حيث بدت حالة «آن» الصغيرة من سيئ إلى أسوأ . وقد خضعت «آن» لكل العلاجات التى وضعت لها، لكن لم ينفع أى شىء .

فى يناير عام 1849 م كتبت «شارلوت» تصف حالة أختها : «لا تستطيع آن إكمال عملها، بالكاد تستطيع القراءة، كما أنَّها تستعمل كرسى إميلى، وحالتها تسوء يوماً بعد يوم، تتلهف «آن» لأن ترى البحر، فمن الممكن جعل البحر يريحها قليلاً» .

وفى الثامن والعشرين من شهر مارس عام 1849 م أسلمت «آن» الروح عن عُمر يناهز التاسعة والعشرين، دون أن تتزوج .

تركت «آن» رواية وحيدة بعنوان «أجنس جراى» Agnes Grey تقوم الرواية على فتاة تدعى «أجنس جراى» بنت رجل دين يُدعى «هاتيفيلد» تؤدى حماقته وهوسه بالمال لخراب وتهدُّم العائلة، ونتيجة لذلك تتسلم النساء مسؤولية البيت، تُصر «أجنس» أن

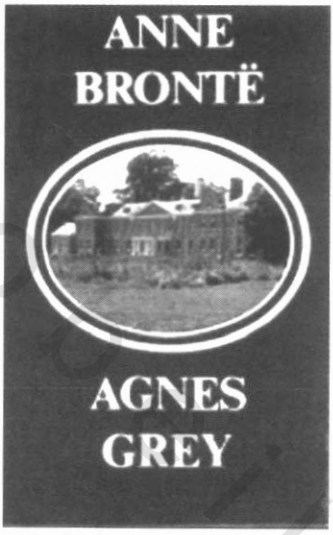

تعمل معلِّمة لتساهم بأى شىء حقيقى لصالح العائلة، فتذهب لعائلة «بلو مفيلد» أولاً وتتولى مسؤولية مَنْ هم بشبه الشياطين الصغار، المصير الطبيعى للمُعلِّمة فى أى وقت وأى مكان . وتجد «أجنس» نفسها ترتبط بثلاثة أجيال فى عائلة لم تجد منهم تعاطفاً وإحساناً لها، وتبذل قصارى جهدها لتعليم الشياطين الصغار ولكنها تفشل ولذلك يتم طردها .

ولكن «أجنس» لم تستسلم فتذهب لعائلة «موراى» حيث وجدت طلاباً أكبر سناً من أطفال عائلة «بلومفيلد»، فتجد نفسها أكثر نجاحاً، ولكن عائلة «موراى» لا تهتم بالقيم الاجتماعية أو الأخلاقية لأنَّها عائلة أرستقراطية، فتخاف «أجنس» من هذا الانحطاط الأخلاقى الذى تشعر به فى تلك العائلة . ثم ترى تلميذها الأكبر سناً يتقرَّب منها رويداً وهو فى النهاية يطلب منها الزواج، فتغتنم الفرصة وتتزوجه .

هذا وتعتبر «آن» أقل أخواتها موهبة، بل هى متوسطة القدر فى كل ما كتبت .